حرية الفكر والإيمان

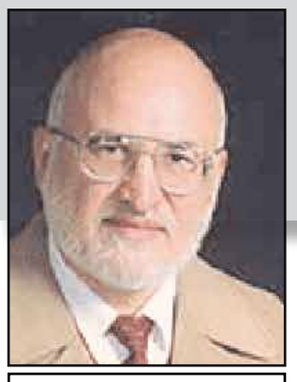

خالص جلبي

هناك من يظن بأن حرية الفكر تقود إلى الكفر، وأن حرية المرأة تقود إلى الفسق، وأن العقل محدود فلا يمكن إطلاقه إلا كما نفعل مع طير القفص بتعريضه للهلاك. وهناك من يرى أن كل الخطر في تلقي العلوم الإنسانية من غير المسلمين في الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والاجتماع: (فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه) كما جاء في كتاب (معالم في الطريق) لسيد قطب - فصل (التصور الإسلامي والثقافة). وسيد قطب نفسه لم يكن ليتكلم عن (ميكانيكا الكم) عند تفسير الآية (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) لولا أنه قضى أربعين سنة من عمره وهو يقرأ في فكر (الجاهلية)! فهذه أفكار أربع تأسيسية في بداية البحث، تناقض الفكر مع الإيمان، والعقل محدود الطاقة، ويجب عدم السماح للكفر بالتعبير عن نفسه خوفاً من هزيمة الإيمان إذا ظهر في ساحة المواجهة. وبكلمة أخرى، بناء الأفكار على الإكراه. أما العلوم التطبيقية من الفيزياء والكيمياء والفلك فلا بأس من نقلها مع حرمة الاطلاع على الذيول الفلسفية لها. فنقرأ (الفلك) بدون نظرية (الانفجار العظيم). وندرس (الفيزياء) بدون مبدأ (الارتياب). وندرس (الطب) بدون الإحاطة بنظرية التطور وعلم الجنين المقارن والدراسة الكروموزومية بين الإنسان والشمبانزي.

إن تفكيراً من هذا النوع، يشكل خسوفاً كلياً لشمس العقل، وضرباً من الإعاقة العقلية كما عند المشلولين، وانقطاعاً عن مسيرة الفكر الإنساني يحشرنا في شرانق محنطة من تراث لم ينجح في نقلنا إلى المعاصرة حتى الآن. والأهم عدم القدرة على التخلص من العقل النقلي والرسوخ في آسار من التقليد لا نهاية لها. وإذا كان التراث قد كتب في ظروف مشبوهة من الانسحاق السياسي بيد وعاظ السلاطين، فهو تراث لا علاقة له بمفاهيم القرآن، ولا يمثل أكثر من تراكمات لأفكار فقدت فعاليتها في عالم يحكمه منطق الفعالية، أو بتعبير (مالك بن نبي): عالم إسلامي يتم اغتياله مرتين بالأفكار الميتة والقاتلة. ويعني بالأولى الأفكار التي فقدت إشعاعها الحيوي - كما في اليورانيوم حينما يتحول إلى رصاص بعد استهلاك الطاقة - وتحولت إلى جثث متعفنة يجب أن نطبق عليها (السنّة) فنسارع في دفنها بعد أن فاحت رائحتها. فكما ان للأموات مقابر، يجب أن نبدأ في تهيئة مدافن للأفكار الميتة. أما (الأفكار القاتلة) فهي أفكار فعّالة دُقلت من وسطها إلى وسط مغاير بغير شروط نقلها فضرت من حيث أريد لها النفع، كما يحدث في نقل الدم لمريض بحقنه بزمرة خاطئة فنقتل المريض من حيث نريد شفاءه.

من هذه النماذج، البرلمانات ونظائرها، فهي من ناحية الشكل لا تختلف عما يحدث في أوروبا، لكنها من الخارج قبور بيضاء تضم من الداخل العظام وهي رميم. ومن الغريب أن فلسفة القرآن تناقض مفاهيم المسلمين المسيطرة، فهو يفترض أن الإيمان مؤسس على (التفكير) و (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب). اما نحن فنفزع من التفكير. ولم يتهم القرآن قط (العقل) أو (العلم) في الوقت الذي أدان (الظن والهوى) .. ونحن اختلط علينا العقل بالهوى. وأعتبر القرآن أن حركة العقل مطلقة: (وإنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا). بيد اننا نحاصر العقل في كل مجال، ونريد قتل الباطل بكل وسيلة، وضربة 11 سبتمبر نموذج لها. وأمرنا القرآن: وقل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ونحن ننغلق على النص، وننفك عن الواقع والتاريخ، مع أنهما مصادر المعرفة.

وقال الرسول يا ربّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا. واعتبر القرآن ان العلم كم تراكمي لا نهاية له: (وفوق كل ذي علم عليم). ونحن نطالب من حولنا أن لا يطلعوا أو يطالعوا وأن يغلقوا عيونهم، ونصدر المذكرات والمنشورات في تحريم القراءة من كتب بعينها، كما فعلت الكنيسة من قبل. وكتاب «الكوميديا الإلهية» لدانتي لم تفرج الرقابة الكنسية عنه حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكتابات سارتر الوجودي بقيت حجراً محجوراً حتى نهاية الستينات. وإذا كانت الكنيسة قد أحرقت العلماء وكتبهم مع الساحرات في الساحات العامة وعالجت السعال الديكي بلبن الحمير، فقد أحرقت كتب ابن رشد وحبس رهن الإقامة الجبرية مع اليهود والصعاليك.

واعتبر القرآن أن الكون لم ينته خلقه:)ويزيد في الخلق ما يشاء) لكننا نظن أن نهاية العالم اقتربت، ونحن نعلم اليوم أن التاريخ لم يبدأ بعد، وما زالت الإنسانية في مرحلة الطفل الذي يوسخ نفسه ولا يحسن تنظيف قاذوراته. وأعظم شاهد على طفولة العقل الإنساني خطبة بوش الرئيس الأمريكي في شهر فبراير 2002، الذي خطب لمدة خمسين دقيقة في جمهور مترنح صفق له 79 مرة وهو يهدد ويتوعد، مما دعا المحللين إلى أن يسموها خطبة الكراهية. وان خمرة أفغانستان شديدة الكثافة خطيرة على الرشد. (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا).

ولا نملك الا ملاحظة الكم الهائل من الإنتاج المعرفي الوارد الينا من غير المسلمين، بدءا من داروين الذي كتب أصل الأنواع عام 1859، وانتهاء بدونالد جوهانسون الذي كشف عن هيكل لوسي عام 1978، الذي يعود لأكثر من 3.4 مليون سنة. وكل من غطس في التاريخ لفهم قوانين حركته، كان ممن لا يوثق في (دينه وتقواه) حسب تفكيرنا مثل (ويلز) صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) أو البريطاني (توينبي) صاحب كتاب (مختصر دراسة التاريخ) أو الأمريكي (ويل ديورانت) صاحب سفر التاريخ بـ 42 مجلداً عن (قصة الحضارة). فضلا عن ان كل الانتاج المعرفي في علوم الذرة أو المجرة كان من غير المسلمين، بدءا من تركيب العناصر في الجدول الدوري للعناصر الذي كشفه (ديمتري مندلييف) الروسي، وانتهاء باكتشاف تمدد الكون على يد الأمريكي ادوين هابل، أو تركيب الذرة على يد الدانماركي نيلز بور، أو فك إشكالية حركة الإلكترون في قانون الارتياب على يد الألماني فيرنر هايزنبرغ، أو معنى الحضارات وحركة التاريخ على يد (اوسفالد شبنجلر) الألماني، أو حركة المجتمع وتشريحه على يد الفرنسي أوجست كومت، أو قوانين علم النفس عند النمساوي فرويد أو سكينر من المدرسة السلوكية وفيكتور فرانكل وابراهام ماسلو من مدرسة علم النفس الإنساني.

وهكذا فالإنتاج المعرفي، شئنا أم أبينا، يهبّ علينا اليوم بماء منهمر برياح موسمية شمالية غربية. والسؤال الذي يطرح نفسه ما سبب نكبة الفكر عندنا؟ ولماذا أصبنا بهذا العقم المنهجي؟ ولماذا كل هذا الرعب من المعرفة؟ إن عدم السير في الأرض والاستفادة من التاريخ والواقع يجعلنا لا نستفيد من القرآن، وهو ما أشار إليه حديث (ابن لبيد) حينما أخبرهم صلى الله عليه وسلم عن (ذهاب العلم) فتعجب الصحابي وظن أن الأمر متعلق بقراءة القرآن، فقال: (وكيف يضيع العلم ونحن نقرأ القرآن وسوف نقرئ أبناءنا القرآن وأبناؤنا سيقرئون أبناءهم القرآن، فقال له صلى الله عليه وسلم: ثكلتك أمك ابن لبيد، لقد ظننتك أفقه من بالمدينة أو ليس اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء). إن ما لم يفهمه الصحابي أن الانحطاط يمكن أن يحصل مع وجود القرآن لافتقاد آلة الاستفادة منه (العلم).

كما فات الصحابي الجليل أن هناك آلية خفية يعيش فيها كل إنسان ولا يتفطن إليها وهي ارتباط النص بحركة الواقع، كما يحدث من انفكاك عمود الحركة في السيارة عن العجلات فتتوقف عن السير. وعندما تنفك هذه الآلية لا ينتفع الإنسان من أي شيء حوله. ونحن اليوم نملك أعظم المصادر ويصب الذل على رؤوسنا مع شروق كل شمس. وعندما يقرأ المسلمون القرآن بعيون الموتى، لن يستفيدوا منه. وهناك من الأتراك والعجم من حفظ القرآن عن ظهر قلب بدون أن يفهم كلمة واحدة.

وعندما كان (محمد عبده) يخبر أن فلاناً حفظ القرآن، كان يقول: زادت نسخ القرآن واحدة. والفرق بين الفهم والحفظ مثل إنسان دخل صيدلية عامرة بالأدوية وهو لم يسمع بالكيمياء العضوية بعد. أو مثل جاهل نظر في السموات العلى، أو أمي نظر في وثيقة عن السلاح الذري باللغة الإنكليزية. فقد يتناول الأول دواء ساماً، ولن يفقه الثاني شيئاً عن نظرية الانفجار العظيم، ولن يفك الثالث الخط عن أخطر سلاح عرفه الجنس البشري، أكثر من خربشة أقدام الدجاج في الطين. إن عدم الانتباه إلى هذا يجعلنا لا نستفيد من القرآن.

إن صراع الفكر في وجه التعصب والخرافة طويل. ويذكر التاريخ أن (دانتي اليجيري Dante Alighieri) الشاعر والسياسي الإيطالي الذي عاش بين عامي 1265 ـ 1321 حُكم بالإعدام مرتين ونجا من حبل المشنقة، واختفى عن الأنظار سنوات طويلة، وأحرقت معظم كتاباته، وكان يصارع قوى مرعبة من غيلان الكنيسة ورجال الاكليروس، وفي السنوات السبع الأخيرة من حياته فضل أن يودع الحياة الدنيا بكل خرافاتها ليتصور نفسه في العالم الآخروي مع العقول النيرة يناقش في الفلسفة والدين والسياسة والدولة بدون خوف من جواسيس الكنيسة واستخبارات الحكومة في صحبة الشاعر فرجيل وحبيبته بياترس فكتب كتاباً مثيراً بعنوان «الكوميديا الإلهية» التي تعتبر أعظم أعمال النهضة وتضم أكثر من 100 قصيدة في 14230 فقرة.

مفكر اسلامي

الإخوان المسلمون والتحريض على العنف

من الصعب أن نسميهم «الإخوان»، لأنهم تنكروا للأخوة وألقوا بهذه العلاقة السامية في أول صراع على السلطة والسطوة، كما يستحيل أن يكون بينهم وبين «المسلمين» أي رابط بعد أن استباحوا قتل الأبرياء وسفك دم من يخالفونهم الرأي، لذا فالإسلام براء مما فعلوه ويفعلونه، وقد استطاعوا أن يفرقوا بين المرء وأخيه ويدفعوا بالمسلمين كافة إلى جانب العداء للعالم بأسره، لذا فهم ملاعين وملعونون؛ لأنهم شككوا في الإسلام الصحيح وجعلوه ديناً للإرهابيين والسفاحين والقتلة والمأجورين والمتآمرين على أوطانهم ومجتمعاتهم وأهلهم.

طارق سيف

لقد استطاع الإخوان المسلمون أن يدمروا في خمسة عقود ما بناه الإسلام والمسلمون في 1400 عام، ولم يكن استعراض التايكوندو والكاراتيه لشبابهم بالملابس السوداء في جامعة الأزهر بمصر منذ عامين تقريباً من قبيل «الفجور الإعلامي»، بل كان رسالة واضحة للجميع، حكومة وشعبا، بأننا جاهزون ومستعدون للقتال يداً بيد ضد كل من تسوّل له نفسه الوقوف أمامنا، وهذا هو موقف الإخوان في كل زمان ومكان.

تُعتبر جماعة الإخوان المسلمين المدرسة التي تخرجت فيها جميع حركات العنف والإرهاب الإسلامي لتحقيق أهداف سياسية، بعد أن استطاعت «تديين السياسة» أو «تسييس الدين» لتحقيق مصالحها والوصول إلى كرسي الحكم، ومن يطالع خريطة العالم- وخاصة الدول الإسلامية من إندونيسيا شرقاً إلى المغرب غرباً، ومن تركيا العلمانية الإسلامية شمالا إلى الصومال جنوبا- سيجد بصمة الإخوان المسلمين، وجميع أعمال العنف والإرهاب وقتل الأبرياء مذيلة بتوقيع هؤلاء، لذلك سيشعر بمدى التشويه وعظم الجرم الذي ارتكبوه في حق هذا الدين ومعتنقيه بقدر يفوق ما صنعه أعداؤه على مدى عقود من الزمن.

لقد استطاع فكر الإخوان المسلمين أن يسيطر بصورة غير مسبوقة على ملاعين وشياطين الإرهاب في العصر الحديث، وأفرز العديد من الخلايا والتنظيمات المتطرفة التي اتخذت من الدين شعاراً لإشاعة الفوضى ونشر الرعب والإثخان في القتل بلا هدف واضح سوى الإساءة لهذا الدين، الأمر الذي دفع العالم إلى أن ينظر للإسلام كعقيدة تحض على العنف والوحشية والإبادة، ولا تأبه لأرواح البشر؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

لقد جرى التوظيف الإعلامي للتصرفات العدوانية والوحشية لهذه الحركات، التي تحمل للأسف شعارات إسلامية، كنموذج للثقافة الإسلامية والعربية وسلوكها «الهمجي»، وساعد ذلك في تراجع الاهتمام العالمي بما يحدث للمسلمين في فلسطين والعراق وكشمير والشيشان على أيدي عصابات البطش الصهيونية اليهودية، والمسيحية الأصولية، والهندوس، والروس.

منذ نشأتهم والإخوان أول من أدخل العنف في السياسة، وأول من حرض على القتل والاغتيال للانتقام، وأصبحوا نموذجاً يحتذى به في الشر وإثارة الفتنة داخل المجتمعات الآمنة، وإشاعة الفرقة بين أبناء الوطن الواحد.

كانت بدية ظهور الإخوان الملاعين في العشرينيات من القرن الماضي، وسرعان ما انخرطوا في العمل السري الدموي، وانقسموا إلى جناحين، الجناح الأول يقوم بالإفتاء وصياغة الفكر المعوج، والجناح الثاني مسؤول عن التنفيذ.

ومن العجيب أن نرى أن الجناح المسؤول عن الفتوى شيوخ يعرفون من الدين الشكل المظهري فقط، ويتعاملون بمكيالين، حيث يصدرون فتاوى متطرفة، لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله، بالقتل والخروج على الحاكم، واستباحة الأموال والأعراض، والسماح بالزنا تحت أسماء مختلفة للزواج لم يسمع بها أحد من قبل، في الوقت نفسه الذي يرتمون فيه في أحضان وسائل الإعلام لجني الثروات وجمع الأموال الطائلة، من دون جهد سوى إنكار ما أفتوا به سراً أو تحت زعم أن ما أفتوا به قد جرى تحريفه. إنهم «شيوخ الفتنة»، المشتاقون الى السلطة والحظوة، أرادوا أن يركبوا قطار التطرف، رافعين شعار «كله مكسب»، فإذا ما انتشرت فتواهم فإنهم يكسبون الدعاية الإعلامية، وإذا كذبوها أو أشاروا إلى تحريفها فإنهم يقبضون الثمن، وفي جميع الأحوال فإنهم يظلون بعيداً عن ميدان القتل، وتكون النهاية أن يصبح الخاسر الحقيقي هو الإسلام والمسلمون.

وقد أفرز الإخوان فئات ضالة كثيرة نتيجة لضعف إيمان أعضاء جناح القتل وسهولة التأثير فيهم، حيث اعتنقوا الأفكار الهدامة ونزعوا إلى العنف والقتل من دون الفهم الصحيح لحقيقة الإسلام كعقيدة بنيت أصلا على الوسطية والتسامح، وكدين يحض على الرفق والرحمة وينهى عن العنف والقتل، ففي الحديث الشريف الصحيح: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير»، وفي حديث شريف آخر: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه».

والمراجعة التاريخية المعاصرة لنشاط الإخوان الملاعين في بعض الدول العربية تشير إلى مفارقات كثيرة، ففي مصر مثلاً تظهر بوضوح أبعاد تجربتهم الفاشلة، فبعد أن خرجوا من الجحور وأشعلوها حرباً ضروساً ضد المصريين والأجانب، وعرّضوا آلاف الأبرياء للقتل، عادوا إلى جحورهم تحت وطأة لفظ المجتمع لهم ورفضه لفكرهم وسلوكهم، وسرعان ما أعلنوا الانتقال من المواجهة إلى المراجعة، ثم من المراجعة إلى مبادرة لوقف العنف.

أما في الجزائر فكانت الطامة الكبرى، حيث قام الإخوان الملاعين باستباحة ذبح الأهل والأقارب والأطفال والأبرياء من المسلمين، وكانت الجحور والكهوف مأوى لهم بعد أن كشفتهم الشرطة الجزائرية وفضحت أعمالهم الدنيئة وناهضهم الشعب الجزائري، ولم تنطل على أحد فتاوى شيوخهم التي استباحت أعراض الأبرياء من المسلمات تحت زعم أنهن سبايا وغنائم حرب!

أما في اليمن والسعودية، والكويت من قبل، فنجد تراجعاً حاداً من شيوخ «الفتنة» عن فتاواهم المحرضة على قتل الأبرياء، بعد أن شعروا بمدى الجنون الذي أصاب الإخوان الملاعين وجعلهم يفجرون أهدافاً عشوائية، بل إنهم أصبحوا السبب الرئيسي وراء حملات الغرب في الإساءة للإسلام، والإصرار على أنه دين قتل وإرهاب.

لقد أصبحت زعامة الإخوان مهنة من لا مهنة له، فمعظمهم لا يفقه في الدين سوى الأمور المظهرية، ويفتي فيما لا يعرف، ويقتطع الآيات من سياقها لخدمة أغراضه، ويستبيح قتل الأنفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، وهو لا يملك أيّ حق. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خاطب نبيّه الكريم بأنه لو كان «فظاً غليظ القلب» لانفضوا من حوله، فما بالنا بخسّة عمليات القتل والتنكيل بالأبرياء من دون ذنب ارتكبوه أو جريرة فعلوها، تحت زعم الكفاح أو مناهضة المحتل؟

والمدهش أن أصحاب هذه الفتاوى ومتبعيها يتحدثون عن الوحشية والعنف في فلسطين وأفغانستان والشيشان وكشمير، ولا ينظرون لأعمالهم الملعونة في تهديد أمن واستقرار الأبرياء والمكافحين والكادحين من المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات السماوية الأخرى.

لقد بات الإسلام غريباً في أهله وأصبح المسلم أو العربي، رجلاً كان أو امرأة، مطارداً في كل مكان، والجميع ينظرون له بريبة وشك، بل إن بعض ركاب الطائرات يرفضون إقلاعها وعليها عربي، ومن يحمل اسماً عربياً أو ملامح عربية يجب احتجازه وتفتيشه، فهو مدان قبل أن يفعل شيئاً، والطامة الكبرى لو كان الاسم إسلامياً.

نجح الإخوان الملاعين فيما فشل فيه أعداء الإسلام من تشويه للإسلام ولا يزالون، ونجح الشيطان في أن يصوّر لهم أن ما يقومون به من شر إنما هو لصالح الإسلام والمسلمين. لقد آن أوان التوبة النصوح والعودة إلى صحيح الإسلام، لعل الله يغفر لهم ما اقترفته أيديهم في حق أنفسهم وأهليهم وأوطانهم.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كاتب إماراتي

موقفنا من الحضارة وأدواتها....!

مجتمعاتنا عليها الاعتراف وبكل مصداقية بحقيقة موقفها من الحضارة الغربية حيث لازال الطريق شائكا يحتمل الكثير من المفاجآت التي قد يكون بعضها غير سار لنا وخصوصا بعد انطلاق مسيرة العولمة والسبب في استعجال التفكير حول الحضارة الغربية هو أننا كمجتمعات تستفيد من الحضارة الغربية لم نعمل على توضيح موقفنا الحقيقي.

علي الخشيبان

خلال القرن الماضي كانت الحضارة الغربية مجرد نظريات سياسية لذلك كان قبولها أو رفضها يتم وفق معايير سياسية بالدرجة الأولى وغالبا ما يترك للمجتمعات تحديد موقفها من تلك النظريات السياسية لذلك لم يتعد مفهوم مجتمعاتنا اليمين أو اليسار وذلك أمر طبيعي حيث كان ميزان القوى يتأرجح بين الأقوياء فقط.

بعد نظرية صدام الحضارات توقفت لدينا قنوات التفكير ولم نعد ندرك حقيقة هذا الصدام وكيفيته التي سوف يحدث بها والسبب في ذلك أن الحضارة الغربية لم تعد نظريات سياسية فقط بل أصبحت نظريات ثقافية واجتماعية واقتصادية.

الكثير منا يتوقع أن فكرة صدام الحضارات فكرة خيالية بعيدة الحدوث والبعض الآخر يؤمن بحدوثها ولكل فريق موقفه الراسخ ودلائله الأكيدة.

الصدام الحضاري بمفهومه الحالي فكرة جديدة نسبيا فالحضارات تنتهي وتبدأ وتسيطر بأدوات ثقافية ومعايير وقيم خاصة بتلك الحضارة وهي تضعف بشكل تدريجي وتتفكك معاييرها أولا قبل أن تسلم نفسها للنهاية ولا تنتهي بشكل مفاجئ أبدا.

في موقفنا من الحضارة الغربية هناك مؤشرات ثقافية حدثت خلال العقود الماضية كان لها الأثر الكبير في بلورة شكل من المواقف السلبية في بعضها وخصوصا عندما نظرنا للحضارة الغربية من خلال منظار التراث فقط وخاصة أن هذا المنظار كان بحاجة إلى اعادة نظر في بعض أجزائه الفرعية لكي نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية لهذا التراث.

نحن في هذا الزمن نحتاج أن نستحضر شيئا من التاريخ لنتعرف على ذلك المنظار الذي استخدمته الحضارة الغربية عندما استفادت من منتجاتنا الفكرية كما يقول لنا التاريخ.

عندما كان لدينا حضارة لم نفكر يوما كيف استفاد الآخر منا دون أن يثير زوبعة من الرفض القاطع والقبول المجزأ مازلنا لا نعرف الكيفية التي تعلم بها الغرب آنذاك كيف كان يستفيد من مجتمعات تكاد تكون متناقضة معه فكريا وثقافيا.

سؤال كبير نسينا أن نتذكره كيف يمكن لنا إعادة المحاولة مع الحضارة الغربية التي تمنحنا هذه الأيام فرصة كبيرة للتعلم منها...؟.

مقومات الاستفادة من الآخرين لم تعد كما كانت في الماضي لقد تغيرت الأساليب وأصبح هناك فرصة سانحة لكل مجتمع ولكل ثقافة أن تخطو الخطوات إلى الأمام ولكن كيف يمكن أن تتحقق هذه الخطوة في ظل وجود معايير لم تتغير منذ عشرات السنين بل مئات.

الفكرة البسيطة هي مدى إمكانية الاستفادة من قيم الحضارة وليس من منتجاتها فقط ورفع قيم الاستهلاك ولكن ما اقصده هنا بقيم الحضارة تلك المعايير الثقافية والأخلاقية والقانونية والاقتصادية التي صنعت التحول في مجتمعات مماثلة لنا كانت تصنف عالميا مثلنا ولكنها عرفت كيف تستفيد من تلك الفرصة للتحول إلى مجتمعات تستطيع أن تنجح بكل بساطة.

سؤالنا الذي يجب أن نطرحه على مجتمعاتنا هل نريد التحول والتغيير أم لا...؟، قضيتنا مع الحضارة الغربية تشكلت لدينا بطريقة خاطئة امتزجت فيها المواقف الاقتصادية والسياسية بطريقة غير دقيقة وهذا هو مفصل القضية في كل نقاش حول الحضارة الغربية.

وبدلا من أن يكون دور العلماء والمثقفين هو قيادة المجتمع نحو التحول وإجلاء وتوضيح موقف المجتمعات من الحضارة الغربية أصبح دورهم عائما بين مواقف تراثية تشكلت لدى العامة الذين تشكلت لديهم مواقف رافضة للحضارة دون وعي كامل بالموقف الحقيقي للتراث بالإضافة إلى دور يحاولون فيه نفي التهمة عن أنفسهم بأنهم دعاة تغريب.

في مجتمعاتنا مصادرة غريبة لكل مصطلح غربي هذه المصادرة مبنية على مواقف سياسية وليس مواقف حضارية بينما لدينا قبول غريب للاستهلاك الغربي على جميع المستويات.

على المستوى الاقتصادي تعتبر مجتمعاتنا من أكثر مجتمعات العالم استهلاكا للمنتج الغربي وعلى المستوى الثقافي تعتبر مجتمعاتنا اكبر المستهلكين للثقافة الغربية عن طريق الإعلام المرئي أو المسموع أو عن طريق شبكات الانترنت، كما أننا نستهلك وعن طريق السياحة والذهاب إلى تلك المجتمعات الكثير من الثقافة والسلوك الاجتماعي.

مع كل هذا الاستهلاك المتعدد إلا أن مواقفنا الاجتماعية تتناقض كثيرا مع معدلات استهلاكنا الحقيقية للثقافة الغربية، هذه المواقف مثيرة للحضارة الغربية أيضا فهم أيضا يتساءلون حول تلك المواقف المتعاكسة ولا يفهمون القضايا بنفس الطريقة التي نحن نفهمها بها ولذلك لن يحدث فهم مشترك ما لم نتعرف على الطرق التي يفكر بها الآخر حولنا.

هناك مجتمعات فعلية تجاوزت معادلة المواجهة مع الحضارة ومصادرها لتصل إلى حلول منطقية غير خاضعة لمواقف مهتزة عن الآخر والحضارة، هذه المجتمعات تجاوزت الكثير من المعايير الخاطئة حول فكرة التغيير والتحول وصناعة المجتمعات المتحضرة.

قد يستغرب البعض تكرار الحديث مرات ومرات حول هذه القضايا الخاصة بالغرب والحضارة ولكن الواقع يعكس لنا أن البداية هي استثمار الفرص الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتوجيهها في مسار يصنع المجتمعات ويغير من فكرها بطريقة ايجابية.

نحن نناقش وبشكل يومي تقريبا فكرة التطور والتغير الجميع يبحث عن الأفضل والأفضل موجود في ثقافة نستطيع وبقليل من التفكير الاستفادة منها.

فكرة التطور والإجابة على التساؤلات المتكررة: ماذا ينقصنا لنتغير مادمنا نملك مقومات التغير الايجابي، البشرية، والمادية...؟ كل صباح ومع كل قضية نحن نطرح هذا السؤال.

الحضارة الغربية أصبحت تذوب مكوناتها الثقافية في مجتمعات العالم بطريقة سريعة، ولكنها متفاوتة بين المجتمعات فبعضها يمتلك القدرة على ما يمكن تسميته (فوترة) تلك الحضارة بشكل ايجابي حيث يبدأ بالاعتراف بأهمية التحول والتغيير ويعترف بأهمية الاستفادة من الآخر. مجتمعات أخرى ليس لديها القدرة على الاعتراف بأهمية الحضارة على المستوى الفكري والثقافي ولكنها تستهلك من تلك الحضارة بشراهة عالية وهي لا تعلم متى سيأتي اليوم الذي تجد نفسها في موقع لا تستطيع أن تعرف من هي ولا إلى أي ثقافة تنتمي.

نحن أمام تيارات ليس لها حلول سوى أن نعرف كيف نستقبلها بطرق ماهرة وبكثير من الايجابيات وقليل من السلبيات.

السؤال المهم كيف يمكن للمجتمع أن يتفهم قضية الحضارة الغربية والاستفادة منها بدلا من استهلاكها فقط.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وبعد أحداث العراق وبعد ظهور إيران على الساحة السياسية كدولة تحاول امتلاك السلاح النووي وما يحدث في باكستان الجار القريب لأفغانستان كل هذه الأحداث ليست سوى مقدمات كبيرة لتحولات في المنطقة لها اثر كبير على البناء الثقافي والفكري وما يهمنا من تلك التحولات السياسية والثقافية التي سوف تصحب هو الأحداث وما سوف ينتج عنها لذلك علينا التفكير بطرق ايجابية لحماية مجتمعاتنا بطريقة ماهرة.

كاتب سعودي